

قال تعالى: {وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمُصرخيّ إني كُفرتُ بما أشركتموني من قبلُ إن الظالمين لهم عذابٌ أليم} إبراهيم 22. مما يجب تحريره في تصوّر حقيقة الصراع في هذه الدنيا أن يعلم المسلم أنّ عدوّه الحقيقي هو الشيطان، وهو كائنٌ مخلوق، وما من شرٍّ في هذه الدنيا إلا وهو منبثقٌ من زمزمته وهمزه ولمزه، وهو أستاذ أهل الشرِّ، وهو إمامهم وقائدهم، يحدّثهم ويحدثونه {يُوحى بعضهم إلى بعض زُخرفَ القول غروراً} ويبثّ فيهم من تعاليمه وأفكاره ما يجعلهم عباداً لدينه وشريعته.

وقد كتب بعض مشايخنا في تعريف الأمة لحقيقة هذه الصراع وطبيعته وأهدافه وأسلحته كتاباً ماتعاً رائعاً لا ينبغي لطالب العلم أن يفوت قراءته، هذا الكتاب هو: (عندما ترعى الذئاب الغنم) للشيخ رفاعي سرور، وحتى لا أكرّر ما يقوله فضيلة الشيخ فإنّي أنصح إخواني بقراءته ودراسته، وهو من الكتب القليلة التي تخرجها مطابع اليوم وتستحقّ النظر والاحترام. وكتب الشيخ كلها نافعة جليّة، منها: قدر الدعوة وحكمة الدعوة، وأصحاب الأعداء. فجزى الله الشيخ خير الجزاء.

هذا العنوان خطبة إبليس في النار - قاله الإمام العلامة أبو الفداء ابن كثير في تفسيره. وفي هذا العنوان في ظنيّ - ما يحتاج إلى بعض المراجعة لتصويب ما يقع في خلد القارئ من تمثّل للطريقة التي يلقي فيها الشيطان خطبته، وهذا التمثّل له أهميّة في تحقيق المعنى النفسي لقارئ هذه الآية العظيمة، فإنّ تصوّر المسلم لخطيب فوق منبر، شامخ بأنفه، دافع لصدره، معتزّ بنفسه، تلقى ظلّالاً من الهيبة على معاني الكلمات التي يخرجها، وتكسب الألفاظ قوّة زائدة، كما هو شأن حركة اليد للخطيب أو المدرّس أو الواعظ.

وهذا الموقف الذي سيخطب فيه الشيطان خطبته ليس فيه أيّ قدر من هذه المعاني، بل هو على الضدّ منها من كلّ وجه. فإذا كان شأن الخطيب أن يخطب على مستمعيه من على فوق درجة أو درجات، فإنّ الشيطان هاهنا يخطب من سفّل تحت دركات، وإذا كان الخطيب فوق منبره يقرّر ويعظ ويعلم، فأبليس هنا يتنصّل ويبكت ويخزي ويخزي، وإذا كان الخطيب يرفع رأسه ليراه الناس وليكسو ألفاظه معنى الهيبة والقوّة، فإنّ إبليس هنا ينكمش ويتصاغر لأن جموع الطالبين بالحقوق منه هادرة غاضبة صادخة وتطلب التفسير والجواب. فأبليس في خطبته هذه قابع في الدرك الأسفل، بل في أسفل دركة، خائب حسير، تلفحه النار والعذاب من كلّ مكان، وملائكة العذاب تضربه من كلّ جانب، وصراخٌ وعويلٌ أتباعه تزيده ألاماً فوق ما هو عليه، ورؤيته للفقراء والمساكين الذين كان يستهزئ بهم ويتعالى عليهم وهم ملوك في الجنان تأكل قلبه وتشعل ندمه.

هكذا يجب أن نقرأ هذه الخطبة، وإلا وقعنا في الكثير من الأخطاء في فهمنا لما يقوله الله تعالى وهذا الذي أقوله مع علمي بما روي عن الحسن البصريّ رحمه الله تعالى أنّه قال: يقف إبليس خطيباً في جهنّم على منبرٍ من نار يسمعه الخلائق جميعاً فيقول: إنّ الله وعدكم وعد الحقّ. ولا أدري إلا أن الذي يُطالب من قبل أتباعه أن يُصرخهم (ينقذهم) وينفذ وعوده فينكص ويعترف بكذب وعوده، ويقرّ بعجزه عن عدم نصرتهم، إلا أنّه في الحالة التي وصفت، وعلى كلّ حال فلو صحّ ما قاله إمامنا الحسن رحمه الله فليس فيه إلا أنّه على منبر من نار، ومن يقوم على هذا المنبر باختياره؟ فوجه ما قاله الإمام - والله أعلم - أنّه أقيم رغم أنفه على منبر محاكمة وعذاب ولم يقم باختياره، فلا يبعد أبداً عن المعنى الذي قلناه والله الموقّق.

وهذه الآية عن خطبة الشيطان قيلت في كتاب الله تعالى بعدما أخبرنا الله تعالى عن تبرّي الأسياد من الأتباع: {وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تَبَعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب

الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص وقال الشيطان..}.

والمناسبة بين الآيتين واضحة جلية، فإن سياق الآيتين حديث عن قضية مهمة وهي قضية الخول والأتباع، وأنه لا حجة لهم عند الله تعالى بكونهم كانوا مستضعفين في قوتهم وعقولهم، رضوا لأنفسهم بالتسليم، وتعليق ما هم عليه من الكفر والضلال على مشجب أسيادهم، رافعين عن أنفسهم التهمة، واجدين لها العذر والحجة، وهي حجة تتكرر على مر الأزمان والدهور، يقولها الناس بصيغ متعددة وبألفاظ متباينة لكنها تدور على معنى واحد وهو: {كنا مستضعفين في الأرض}، والله تعالى قد قطع هذه الحجة في الدنيا وقطعها في الآخرة، أما في الدنيا فإن الله تعالى قد أهلك أتباع الفراعنة والطواغيت مع أسيادهم، ولم يستثنهم من العذاب والهلاك، قال تعالى عن فرعون: {فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم} القصص 40. ودمر صنيع الأمر والمأمور قال تعالى: {ودمرنا ما كان يصنع فرعون وجنوده وما كانوا يعرشون}، وأما في الآخرة فكما هو قوله سبحانه وتعالى في هذه الآية التي بين أيدينا، وكما في غيرها من الآيات الكثيرة.

وقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى في كتابه (طريق الهجرتين) مراتب المكلفين، وذكر مرتبة من هذه المراتب هي مرتبة بهائم البشر من المقلدين للكفار والطواغيت، يرجع إليها لأهميتها. والآيات في هذا الباب فيها التحذير من التقليد، ومن عدم استعمال المرء لما وهبه الله تعالى من نعمة العقل والنظر، وفيها الدعوة إلى عدم قبول الاستضعاف، وإن الاستضعاف والذلة هي طريق الكفر والضلال، فتبكي التقليد، أي تقليد أتباع الكفر لأسيادهم فيها الدعوة لتحرر العقل من أغلاله وتحرر الإرادة من معوقاتها، وهذا هو الإنسان لا غير علم وإرادة، وما جاء الإسلام إلا لتحريرهما من الأغلال والقيود والموانع، وإن تقدم أي أمة من الأمم لا يكون إلا بتصويب العلم وتحرير الإرادة، وصدق الشافعي رحمه الله تعالى حين مدح نفسه بأنه يرى المذلة كفرة كما هو في ديوانه. وما نرجع أمتنا وتخلّفها وارتكاسها في مراتب الذلّ والهوان إلا بسبب الجهل والذي منه التقليد، وبسبب تحطم إرادتها بقيود الشهوات والأفكار الباطلة كالجبرية والصوفيّة.

ولذلك من مهمّات الدعاة إلى الله تعالى ومن مهمّات الجماعات العاملة لإعادة دين الله تعالى إلى الأرض -إن أحسنوا الطريق- أن ينشروا العلم وينبذوا التقليد، وأن يفتحوا المجال للحركة المبدعة التي تتطرق لتحقيق غايات الإسلام العظيمة.

{وقال الشيطان لما قضي الأمر} لا بد من حركة يتصورها المرء لتسبق قول الشيطان، إنّها حركة الأتباع والعباد له، ذلك أنهم تشاوروا فيما بينهم واتفقوا على محاسبته ومطالبته بتنفيذ وعوده، فتدافعوا كال موج يطالبون الشيطان أن يبرر لهم هذا المستقرّ الذي ألوا إليه، وصرخوا بملء أفواههم: أيّها الشيطان... إبليس... أين ما وعدتنا..؟ أين ما زينت لنا..؟ أين ما أقسمت لنا من صدق القول وصواب الحديث إنهم يصطرخون فيها... ليس صراخاً.. إنّه اصطراخ. وزيادة المبني تدلّ على زيادة في المعنى، فإمّا أنهم جرجروه حتى أقاموه فوق منبر من نار.. وإمّا أنه تصاغر وأطلق كلماته هذه محاولاً قدر استطاعته أن يخفي خزيه وعاره، ولم يبق له من عذر فقد قضي الأمر، وأب الناس إلى منازلهم: هو وحزبه إلى النار وحزب الله إلى الجنة. {إن الله وعدكم الحقّ ووعدتكم فأخلفنكم}.

ومثل هذه الآية في المعنى قوله سبحانه: والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن شيئاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوَّاه حسابه.

فالله قد وعد، ووعد حقّ، وهو القادر سبحانه وتعالى أن ينفذ وعده، لا يعجزه شيء إذا أَراده، ثمّ تفكّر بهذه الصيغ الرحيمة التي ينادي الله تعالى بها عباده في هذه الدنيا، إنّها كلمات الرحمة، أنظر وتفكّر في قوله سبحانه {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله. إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنّه هو الغفور الرحيم} فتفكّر فيها المرّة تلو المرّة، ثمّ تفكّر أن الذي يناديكم بهذه الكلمات هو

خالقك وربك، وهو الغني عن العالمين، لا يزيدون ملكه شيئاً إذا عبده، ولا ينقصون ملكه شيئاً لو كفره، سبحانه ما أرحمه، وما أرفه، فله الحمد على جميل صفاته.. جلّ في علاه.

إنّ من وعد الحقّ أن ينصر الله عباده فنصرهم، وإنّ من وعد الحقّ أن يملأ قلوبهم بالرضا والاطمئنان فأرضاهم، وكشف عنهم غمّهم، وإنّ من وعده أن يخفف عنهم سكرات الموت فكان لهم ذلك، وأن يجعل عليهم قبورهم جنّة من الجنان فيها روح وريحان فذاقوا من ذلك ألواناً، وإنّ من وعد الحقّ أن يؤمّنهم يوم الفزع الأكبر فأمّنهم، وإنّ من وعد الحقّ أن يجعل لهم نوراً في قبورهم ويوم بعثهم وفوق الصراط فكان لهم النور، وإنّ من وعد الحقّ أن يدخلهم الجنان فدخلوها، وإنّ من وعد الحقّ وهو أعلى الوعود وأشرفها أن يروا ربّهم فتجلّى لهم من فوقهم ورأوه كما يرون البدر في الليلة الصافية وقالوا الحمد لله الذي صدّقنا وعده وأورثنا الأرض ننبوء من الجنّة حيث نشاء فنعم أجر العاملين.

فماذا فعل الشيطان بوعوده..؟ { فأخفتمكم } هكذا ظهر سراب وعوده، تكشّف كذبها، وبانت على حقيقتها، لقد تلاشت كلّها تحت كلمة الشيطان (فأخفتمكم).. لقد بحثوا عنه في كلّ موطن أقسم لهم أن يكون لهم فيه، ونادوا عليه بكل أصواتهم حتّى كلّت وبحثت، لكنه لم يكن هناك، لقد تخلف لقد أقسم لأبينا آدم { وقاسمهما إني لكما من الناصحين } وكذب في قسمه. لقد أوعدهم الفقر إن أنفقوا فكان ما نصحهم به هو الفقر بعينه.

لقد وعد أوليائه في بدر وقال: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإني جار لكم، فما هي إلا لحظات حتّى صدق الله وعده للمؤمنين وأنزل ملائكته تؤيّدهم وتنبّتهم وتقاتل معهم فما كان من الشيطان إلا أن نکص على عقبيه وقال إني بريء منكم.. إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله والله شديد العقاب.

فأخفتمكم، كلمة لم تبق لهم في نفوسهم أملاً، وقطعت كلّ أمانيتهم، ولم يبق لهم من رجاء، وإذا كان للشيطان أن يصدق قليلاً فإن صدقه هنا لم يكن سوى تصوير لحقيقة الأمر التي لا دافع لها. والله الأمر من قبل ومن بعد. ثم بكلمات يسيرة خاطفة، ككلّ خطبة، قذف البراءة والتبرّي في وجوههم: وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي.

والسلطان وهنا اختلف العلماء في تفسيره، فأكثرهم على أنّه الحجّة والدليل، أي لم يكن لي من دليل ولا حجّة على ما دعوتكم له من الشرك والكفر والمعصية، بل بمجرد أن رفعت لكم لواء الشهوات حتّى أقبلتم إليها دون تفكّر بالعواقب، ودون نظر صحيح.

وقال بعض أهل العلم إنّما السلطان هو القوّة والقهر، أي لم أقهركم على الكفر والشرك إنّما أقبلتم إلى ذلك بمحض إرادتكم، ولا يبعد أن المراد بالسلطان هو هذا وهذا، بل كلمة السلطان أشمل من ذلك، فإنّ الشيطان يريد أن يبرئ نفسه، وأن يحمل الأتباع نتيجة ما أتوا وعملوا، ولكنه استدرك وبيّن ما كان منه من عمل: { إلا أن دعوتكم }، وهكذا أخفى كلّ ما يقوم به من تزيين للباطل ونصرة للشرك والنفخ والهمز في قلوب الناس بكلمة واحدة: دعوتكم.

وأقول: أخفى لأنّ في كلمته هذه تزيين للحقيقة، فإنّها كلمة سريعة فلو كان أمام قضاء غير ما هو فيه لما استحقّ عليها عقاباً، لكنّها يوم القيامة تحمل حقيقة المعنى وذلك لتحقق الجزاء، وهي كلمة تبرّي: نعم، لكنها كلمة تبيكيت وتحقير لأتباعه وعباده، وهي بلا شكّ ستملأ قلوبهم حسرة وندامة الشيطان.

دعاهم، وزين لهم، ووسوس لهم، ووعدهم، وأوحى لهم، ورامهم بسهامه، وقذف في طريق الحقّ ألف معوّق ومعوّق، وصاحب قلوبهم في السر والعلن وكان ممّا قال لربّه يوم لعنه: { أرايتك هذا الذي كرّمت عليّ لئن أحرّتن إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذريّته إلا قليلاً } الإسراء: 62.

فقال الله تعالى له: { اذهب فمن تبعك منهم فإنّ جهنّم جزاؤكم جزاءً موفوراً * واستغفر من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعبدهم، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا }.

فقارن بين هذه الأفعال: دفع الناس بالصوت والنداء إلى الكفر والشرك والمعصية، والجلب عليهم بالخيال والرجال والمشاركة في الأموال والأولاد، والوعود الكاذبة، ثمّ انظر إلى قوله { لأحتنكنّ ذريّته } أي لأشدنهم إلى الشرّ من الحنك وأسوقنهم إليه بكلّ قوّة، وبين قوله: { دعوتكم } ترى كيف ما زال الشيطان

كاذباً ومرأوغاً في كل موطن، نعم: صدق، دعاهم فقط، كل ما فعله اختزله في كلمة واحدة، أما تحقيقها على أرض الواقع فهي تحتاج إلى شروح وشروح. {دعوتكم فاستجبتم} وهكذا يتم التفرغ والتبكي، لقد استجبتم لنداء الشيطان بمجرد أن دعاكم.

لكن هل سكتوا؟ اسمع ماذا قال الله عن جواب الأتباع للأسياذ بعد قول الأسياذ: {قال الذين استكبروا للذين استضعفوا نحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل كنتم مجرمين} فردّ الأتباع: {وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً}. نعم: إنّه مكر الليل والنهار، والتخطيط الدؤوب بترتيب الخطوات -خطوات الشيطان- ليتمّ الانزلاق، {فلا تلوّموني ولوموا أنفسكم}: إذا كان ممّا صرخوا في وجهه أنّهم لا موه على ما زيّن لهم، ولكنّه يردّ لومهم. لكن السؤال الذي يوجّه له: لماذا لا يلوموه؟ أليس هو الذي دعاهم، وقد اعترف بذلك؟! أم أنّه يعتبر أنّ هذه ليست بالجريمة التي تستحقّ العقاب ولا حتى اللوم.

نعم: ليس لهم عذر عند الله بأنهم اتبعوا الشيطان وصدّقوا وعوده، بل سيعاقبون على كل ما فعلوا واقترفوا وبيّتوا.

لكن أصحيح أنّه لا لوم على الشيطان؟ إنّها نصف الحقيقة، وكما أنّها الكلمة البريئة: دعوتكم فاستجبتم، وهي اعتراف بالحق مع المجاهدة القصوى لإمرارها سريعاً دون تفصيل يؤدّي إلى إثبات الجرم، فكذلك هنا: {فلا تلوّموني ولوموا أنفسكم} إنّها نصف الحقيقة تتكرّر، لكن كما قال الله عن الأسياذ والأتباع: {لكلّ ضعف} أي من العذاب، وذلك بعد قولهم: {ربّنا هؤلاء أضلّونا فآتاهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكلّ ضعف ولكن لا تعلمون}. {ما أن بمصرخكم وما أنتم بمصرخي}. وهكذا تدرّج في حديثه حتى وصل إلى هذه الحقيقة، لن أستطيع إنقاذكم ولا نجدتكم، كما أنّكم لا تستطيعون إنقاذي ولا نجدتي، والعرب تقول للنجدة والمغيث والمعين: الصارخ، والصرّاح هو الصياح، لأن طلب الغوث وكذا المغيث لا يخلو منه غالباً، قال أميّة بن أبي الصلت: ولا تجزعا إني لكم غير مصرخ، وليس لكم عندي غناء ولا نصر، أي لست لكم بمغيث.

وهكذا لم يجدوا عنده إلا السراب الخادع، والأمانى الكاذبة، والوعود الباطلة. وقوله سبحانه وتعالى على لسان الشيطان {ما أنا بمصرخكم} دليل على أنّ حديث أهل النار هو الصراخ -وهم يصطرخون فيها- ولا شك أنّ حالهم يدعوا لذلك، نعوذ بالله من عذابه وناره. والمرء لا يقدر إلا ما يقدر عليه، وههنا لا يقدر الشيطان على إنقاذ نفسه، فكيف يقدر على إنقاذ غيره؟! ثم متى استطاع الشيطان أن يقدر لعباده وأتباعه شيئاً؟! ومتى صدق في وعد قطعه على نفسه لهم. ألا ما أشقى من يتبع الشيطان ويثق به ويصدّق وعوده. {إني كفرت بما أشركنتموني من قبل}. وها هو يردّ عبادتهم له في وجوههم، ويرميها خلقة بالية، فقد كفر بعبادتهم، وتبرأ من إشرانهم إياه مع الله تعالى، فقد كفر بشركهم، وهو اعتراف منه أنّ تأله على أتباعه هو تأله باطل، وأنّ عبادتهم إياه عبادة باطلة، وأنّ كل طاعة قدّموها له رجاء خير منه أو جزاء ذهبت سراً ولم تك شيئاً. وهكذا تبيّن للأتباع من عباده الذين نراهم يملؤون السهل والوادي، يأخذون عنه شريعتهم، ويدمرون فطرتهم بالانقياد له، ويعرضون عن أمر ربهم وشريعته، وسنة النبي وهديه، تبيّن لهم: أنّ وعوده كاذبة، وأنّ نهاية العلاقة بينهما هي التبري والقطيعة، وأنّه لن ينصرهم في أيّ مقام من مقاماتهم التي يحتاجون فيها إلى النصرة والتأييد.

والله قوله الحقّ، ووعد الحقّ، وما أخبرنا بهذا إلا رحمة بنا، وإخباراً لما سيقع يقيناً من أجل الاتعاض قبل فوات الوقت، فيومها: إنّ الظالمين لهم عذاب أليم، فليعجل الناس بوصل حبالهم مع الله تعالى، وليقطعوا حبالهم مع الشيطان وجنده، وليسمعوا قوله سبحانه {ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنّّه لكم عدوٌّ مبين. وأن اعبدوني هذا صراطٌ مستقيم} يس60-61. أمّا المؤمنون فقد قال الله تعالى عقب ذلك: {وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم تحيّنهم فيها سلام} إبراهيم23.

وهي كلمات فيها كلّ الجواب على من سأل: فماذا فعل الله بعبيده، وبأتباع الأنبياء، نعم هذه خطبة إبليس في عبده وأتباعه، وأما قول الله لعبيده وأحبابه في الجنان يقول لهم: اليوم أحلّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً، ثمّ يتجلّى لهم فيرونه وهم جلوس على منابر النور واللؤلؤ والذهب وكثبان المسك. إنّها حقائق لا محيد للناس عنها، فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله.